مجلّة تنوير للدراسات الأدبية والإنسانية ISSN 2571-9821
المجلّد: 04 العدد:01 السّنة: 2020 ص: 20 - 37

الفضاءات وشعريتها في دواوين الشاعر عثمان لوصيف

The spaces and their poetry in the poets of the poet Othman Locif

الدكتور: ناصر بعداش*

تاريخ الإرسال 13 / 11 / 2019 تاريخ القبول 28 / 03 / 2020

تعتبر الشعرية واحدة من المداخل الأساسية التي نلج بها عالم النصوص الشعرية، كونها تعيننا على استنطاق النص من الداخل؛ والوصول إلى مقصدية الشاعر وخباياه، وأنها وحدها القادرة على ثمثل المعاني الخفية التي من خلالها يستطيع القارئ فهم النص وفهم صاحبه، وملأ الفجوات التي يخلفها الكاتب عن قصد أو عن غير قصد، وهي المتحكمة في الأسلوب والبناء بصفة عامة، فكلما انتظمت كان النص محكما ذا سبك متين وكان له وقع عند القراء .

إن عنصر الفضاء عنصر مهم جدا في البناء الشعري بصفة عامة، لذا فإننا نجد الشعراء والمبدعين انتبهوا إليه ووظفوه بطرق عديدة؛ لأنه مرتبط بحركاتهم وسكناتهم، وهو شيء مادي ملموس تراه العين كلما لاحت طرفها، وبالتالي فعين الإنسان طبعت على عشق كل ما هو جميل من الأمكنة والفضاءات، ومن ثمة فشعرية الفضاء وجماليته كامنة في اللغة التي يمتلكها المبدع ويحسن ركوبها لأجل التأثير على جمهور القراء والمتذوقين، والعمل على منح النص الأدبي صفة الجاذبية، ولعل شاعرنا "عثمان لوصيف" واحد من الشعراء الذين تعلقوا بفضاءات عديدة محاولا إعطاءها أبعادا فلسفية وأخرى خيالية تبعث النشوة والارتياح، ومنه:

- كيف تناول عثمان لوصيف الفضاء في شعره ؟ ومِنْ أي زاوية كان ينظر إليه ؟
- إلى أي مدى كان نفوذ الفضاء إلى ذاكرة الشاعر؟ وهل استطاع التغيير فيه ؟
- ما هي السمات الشعرية التي تطبع الفضاء في هذا النص الشعري ؟ وأين تتجلى جمالياته ؟ ولماذا اختلفت نظرة الشاعر لهذا المكون؟

* البريد الالكتروني: n.baadache@centre-univ-mila.dz المركز الجامعي ميلة.الجزائر.

- كيف استطاعت اللغة أن تكشف عن هوية الشاعر؟ وهل تَمَكَّنَ من إبراز ذاته وانتمائه؟

الكلمات المفتاحية: الشعرية، الفضاء، النص الشعري، اللغة.

:

Summary

Poetry is one of the main approaches to the world of poetic texts, as it helps us to interrogate the text from the inside; and access to the intent of the poet and his cries, and it is only capable of the hidden meanings through which the reader can understand the text and understand the author, and fill the gaps left by the author Intentionally or unintentionally, they are in control of style and construction in general, whenever the regularity of the text was a textured with a strong foundry and had an impact on readers.

The element of space is a very important element in poetic construction in general, so we find poets and creators pay attention to it and employed in many ways; Space, and from there, the poetry and aesthetics of space are inherent in the language owned by the creator and improves riding in order to influence the audience readers and connoisseurs, And to give the literary text the character of gravity, and perhaps our poet, " **Othman Locif**," one of the poets who attached to many spaces trying to give them philosophical and fictional dimensions of euphoria and comfort, including:

- How Othman Locif took the space runner in his poetry? And from what angle was he seen?
- To what extent was the influence of space to the poet's memory? Did he manage to change it?
- What are the poetic features that characterize the space in this poetic text? And where it manifests its aesthetics? Why did the poet look at this component?
- How did the language reveal the identity of the poet? Was he able to highlight himself and his belonging?

Keywords: poetry, space, poetic text, language.

مقدمة :

تعتمد الأعمال الفنية وبخاصة الشعر على عدة مكونات تكمل بعضها البعض، ولعل الفضاء من بين المكونات الأكثر أهمية من الباقي، وبالتالي فإن للفضاء شعريته

الخاصة، وهو تجلى واضحا في شعر المرحوم عثمان لوصيف، ومنه فإن للشعر جماليات تجعله متميزا عن باقي الفنون الأخرى، ولعل الشعرية هي من تزود الشعر بطاقات تجعل منه فنا ذا ذوق رفيع، وهي التي تضبط تجربة الأديب الشعرية لخلق حالة توازن بين الإدراك الشعوري لعالم التجربة الشعرية والفضاء المحيط بها، بالإضافة إلى مقدرته الفنية على اتزان الصورة الشعرية القابعة خلف الفضاءات المتعددة. ولعل هذا المبدأ يتجلى بوضوح في شعر عثمان لوصيف الذي ألهمته مقدرته الشعرية على الإنشاء الشعري الجميل، بالإضافة إلى القيم الأسلوبية والشعرية والجمالية التي أبدع الشاعر في صياغتها لتكون مميزة يشتهيها القارئ. ومنه:

- كيف تناول عثمان لوصيف الفضاء في شعره ؟ ومِنْ أي زاوية كان ينظر إليه ؟
- إلى أي مدى كان نفوذ الفضاء إلى ذاكرة الشاعر؟ وهل استطاع التغيير فيه ؟
- ما هي السمات الشعرية التي تطبع الفضاء في هذا النص الشعري ؟ وأين تتجلى جمالياته ؟ ولماذا اختلفت نظرة الشاعر لهذا المكون؟
- كيف استطاعت اللغة أن تكشف عن هوية الشاعر؟ وهل تَمَكَّنَ من إبراز ذاته وانتمائه؟

1- ماهية الشعرية:

إن البحث في مسألة الشعرية يتطلب من الدارسين تحديد المفاهيم التي من شأنها الإحاطة بالموضوع، وضبط المصطلحات التي تعددت بتعدد النقاد، وباختلاف عوامل الترجمة التي تعطي المصطلح الواحد أكثر من مفهوم، لذلك فإنها تتضمن العديد من المعاني غير المتساوية من حيث الحضور النقدي، وإذا كان المفهوم المتعارف عليه على إنها قوانين الخطاب الأدبي فإننا: "سنجد النقاد العرب القدامى قد استخدموا الشعرية بعدة مفاهيم، حيث طرحت بوصفها علما موضوعه الشعر، وصناعة الكتابة والتأليف"[1]، وبما أن الشعرية بحسب الدارسين المحدثين موجود نصي متحقق، فإنها موجودات نستطيع القبض عليها عبر اللغة في ثنايا النصوص، وهي بذلك قابلة: "للإكتناه والتقصي والتحليل على أساس أن مادة النص الأولى والمركزية هي اللغة، في وجودها داخل نسق من العلامات المكونة لنظام هذا النص"[2]، ومن هنا تصبح

الشعرية أداة أساسية في كشف المعاني المتوارية خلف وشاح الفن، وعاملا أساسيا من عوامل تحريك غيابات النص وحضوراته، وهي أيضا "منشغلة بحفريات النص، وتغزو المنسي والمكتوب، وتحرك الغياب والحضور، وتقترح التصور والمفهوم والمنهج "[3].

من هنا فالبحث في شعرية الشعر، يجب أن يكون في طريقة النظم "لأن الشعرية واللغة المجازية حيز يبرز الكلام في صورة متجسدة، ويعطينا الكثير من المعاني باليسير من اللفظ"[4]، ويمكن تحقيق الشعرية والقبض عليها في الأعمال الشعرية، خلال حقن اللغة بالتوتر والفجوات، "وتكوين الفراغات والمفارقات الدلالية في بنيتها، فيكون المتلقي إزاء فضاء من الاحتمالات الدلالية، وتتحول الكلمة إلى إشارة، لا لتدل على معنى فحسب، وإنما لتثير في الذهن إشارات أخرى، وتجلب إلى داخلها صورا لا يمكن حصرها "[5]، وبهذا لا يبقى للمفردة اللغوية دلالة واحدة، بل تتعدى إلى دلالات أخرى أكثر تعبيرا، ومن ثم فالشعرية لا تسعى إلى تحديد المعنى في النصوص، "بل تعمل على إقامة قطيعة بين التأويل والعلم في حقل الدراسات الأدبية، عبر البحث في القواعد التي تتحكم في نشأة هذا الأعمال "[6].

إن الشعرية تقترن بالشعر عند أغلب النقاد؛ لأنه يقترن بحب الأنغام والألحان، وتطورت بعد ذلك مع بعض الدارسين أمثال حازم القرطاجنّي " وكذلك ظن هذا أن الشعرية في الشعر إنما هي نظم أي لفظ كيف اتفق نظمه وتضمينه، أي غرض اتفق على أي صفة اتفق، لا يعتبر عنده في ذلك قانون ولا رسم موضوع"[7]، ومن ثمة فالشعرية تقتضي وجود قوانين تتحكم في عملية البناء الذي يتحكم بدوره في سبك المتن أو النص ليكتسب صفة الشعرية، يقول تودوروف: "ليس العمل الأدبي هو موضوع الشعرية، فما تستنطقه هو خصائص الخطاب النوعي الذي هو الخطاب الأدبي "[8].

إنه على اعتبار كل ما سبق يغدو النص الشعري بكل مكوناته، وباعتباره مادة أولية خطابا غَنِيًا بالجماليات الجديدة، وباللغة الشعرية التي تتخطى اللغة الجارية إلى أبعد الحدود، ويمكننا أن نلخص القول أن النص الشعري بكل مكوناته بناء لغوي يتجاوز أو يتقاطع مع خطابات كثيرة، وربما يتجاوزها بتحقيقه لبلاغة الجملة الشعرية بكل ما للكلمة من دلالة .

إن الحديث عن شعرية الأدب يقتضي وجود شعرية للمكونات الخاصة بالأدب وبخاصة ما يتعلق بالشعر الحر، وشعر عثمان لوصيف من بين النماذج الشعرية التي تعد أنموذجا حيا ينطق شعرية وايحاءً، وبالتالي فللأمكنة والفضاءات شعريتها الحاضرة في كل حين، ذلك حينما تحقق انحرافا وانزياحا خاصا بها، وحينما تخرج من عاديتها ومن حيادها لترتبط بنا بخيالاتنا وعواطفنا؛ ولكن بشيء من الخروج عن المألوف، أو الشعرية التي تستطيع أن توحد بيننا وبين فضاءات لا نستطيع التوحد بها، وبأماكن من الطبيعة المحيطة بنا، ومن أشياء تصادفنا في رحلتنا الشاقة للبحث عن الجمال في هذه الحياة المتشعبة الجوانب، وهذه الأشياء " تبقى في غالب الأحيان حيادية سواء كانت جميلة أو قبيحة، مميزة أم عادية ولكنها تخرج من حيادها إذا ما ارتبطت باللغة أو بأشياء أخرى بعلاقة ما "[9] .

2- شعرية الفضاء:

يعد الفضاء في شعر "عثمان لوصيف" أحد المكونات التي لا يمكن الاستغناء عنها أو تجاهلها في أي عمل أدبي (شعريا كان أم نثريا)، ولعل الشعر الحديث أصبح أكثر تعاملا مع الفضاء، ولعل السؤال عن الفضاء مرتبط بالسؤال عن الكائن البشري وموقعه في هذا الكون، ومن ثمة فالأمكنة والفضاءات التي نحياها أو نحلم أن نعيش فيها "لا تبقى جامدة خاصة إذا تعلق الأمر بشاعر، إنها تسكن ذاكرته وتأسر خياله "[10]، بهذا لا يكون المكان كما لو كان واقعيا أو نحس به وبأبعاده إلا عن طريق الخيال، فبه تنتج أدبية المكان الذي تعددت الأسماء التي يمكننا أن نطلقها عليه؛ كالفضاء والحيز والفراغ، وربما كان " المكان آخر الأمور التي يمكن اللجوء إليها لاستصدار الشعرية، بوصفه مكونا أساسا من مواد جامدة محايدة شعوريا، ومحايدة جماليا، إذا لم يتدخل الوعي والذائقة التي تعد بدورها أحد إفرازات الوعي لاستشعار الجمال، أو تدخّل العمل البشري على تحسين المكان وتجميله وما إلى ذلك ..."[11].

فالفضاء بهذا المفهوم يحوي بين طياته كل الأمكنة التي يتكون منها العالم الإبداعي، سواء تنافرت أو اتحدت، أو اجتمعت أو افترقت، سواء تشابهت أو تقاطعت، وهو بذلك الجوهر الذي تتكاثف حوله عناصر القصيدة، إذن فتحديد الفضاء ومتعلقاته من بعض الزوايا المختلفة له العديد من الدلالات، ومن ثم فإن اكتساب المكان لدلالية معينة في العمل الفني، لا بد من وجود صلة تربطه بالكائن الذي يكون حالا فيه، لأن

راوي الأحداث في القصيدة يمكن له أن يتلاعب – إن صح التعبير – بالصورة المعطاة للفضاء داخلها، وهذا التلاعب يمكن الاستفادة منه في الكثير من الحالات، "لأن إسقاط الحالة النفسية أو الفكرية للأبطال على لمحيط الذي هم فيه يجعل المكان ذا دلالة تتجاوز دوره المألوف باعتبارها ديكورا للأحداث، إنه في حالة كهذه يتحول إلى محور حقيقي ضروري، فيقتحم عالم السرد، محررا نفسه من أغلال الوصف"[12]، وبالتالي فكل تنقيب يمس الأمكنة إنما هو ملامسة لشبكة من العلاقات المكونة للمجال المعيشي الذي يربط الأشخاص فيما بينهم، وتتطور هذه العلاقة لتصبح أكثر من ارتباط بوجود وانتماء، "فالمسألة المكانية لا تقف عند حدود التأطير وحسب، وإنما تتعداها إلى مجالات أوسع"[13]، وهنا يأتي دور التفسير ليعطي معانٍ أوسع مما هي عليه، وبذلك تظهر الإيحاءات المتوارية خلف محمولات الدلالة، وتنكشف "معضلة المكان في شكلها المعقد، حينما يلامس التفسير والتأويل تخوما يكون فيها المعنى أكثر ارتباطا بالمكان وإيحاءاته، وكأنَّ المعنى لا يكتسب أبعاده القصوى إلا إذا استرفد المكان واستخلص منه محمولاته الدلالية "[14]، وبهذا نكون في هذه الدراسة أمام نوعين من الفضاء،الأليف والمعادي:

أ- الفضاء الأليف:

وهو كل فضاء نحس فيه بالراحة ونشعر بالأمان، أو هو الفضاء الذي إذا استذكرناه أعاد في أذهاننا صور الحميمية الأولى التي جمعتنا به، إنه المصدر الأول للسعادة التي تبقى راسخة في الذهن حياة الإنسان بأكملها، وديوان الشاعر عثمان لوصيف يحتوي على بعض بالأمكنة والفضاءات ذات الصلة بالجمالية وصور الراحة والسعادة، لكن هذه الفضاءات قليلة جدا إذا ما قورنت بالفضاء المعادي، وها هي مدينة سطيف تفجر قريحة الشاعر فينطق جمالا، ويصبح عطر الفضاء فواحا بالشعرية، نسوق مثالا من قصيدة " سطيف "التي يقول فيها[15]

بكيت وأدركني الأسى
قلت أعود إلى النخل
لكنني حين ناديت عبر الدروب
سطيف ! سطيف!
وجدتك بين يدي بثوب الزفاف
فأيقنت أن الغرام سطيف
وأن العروس سطيف

ضممتك فانهمر الثلج .

إن المدينة كفضاء واسع متباعد الأطراف له قيمه الجمالية، ويصبح في معجم الشاعر "عثمان لوصيف" كائنا حيا جميلا ننجذب إليه كلما ابتعدنا عنه، إذ يجذبنا إليه بشكل سحري لأنه يمثل الجانب الحميم الذي نستطيع أن نتحرك بداخله بحرية كبيرة، وقد جمعته به ذكريات جميلة لا تمحيها الغربة ولا الوحشة، ولا طول المسافة بين المدينة ومركز النخيل الذي يأوي الشاعر، وها هي مدينة سطيف تتزين بثوب العروس التي تجملت في يوم زفافها، فظهرت بأبهى حلة بين يديه، لتمنحه السعادة والراحة التي طالما حلم بها، "سطيف سطيف، وجدتك بين يدي بثوب الزفاف"، هنا يتفجر المقطع شعرية توحي بمدى الأهمية التي يكتسيها الفضاء في نفسية الشاعر، فيقول: "أيقنت" من تمام التأكد أن الحب والغرام قد غمرا الشاعر؛ فامتلأ نشوة وانشراحا بالعودة إلى هذه المدينة الهادئة، " فأيقنت أن الغرام سطيف، وأن العروس سطيف" إيمانا منه أن الفضاء حينما ينطق شعرية، فإنه يحمل بين طياته الصفات الإنسانية التي تجعلنا ننجذب إليه في كل حين، بل ويصبح تلك العروس الساحرة بجمالها، يجدها العريس بين يديه بعد طول انتظار مهيأة في ثوب الزفاف، ليرتمي في أحضانها حيث الراحة والهدوء، فينهمر الثلج الذي أصبح بفضل الشعرية سائلا بعدما كان جامدا في حلة الفراشات التي تتساقط على المكان فتزيده جمالا، ومن هنا ينكشف الهم والحزن والأسى عن الشاعر بمجرد ملامسة تخوم الفضاء الجميل، فضاء مدينة سطيف الساحرة، إذن لا بد من الإشارة هنا إلى الفرق الدقيق بين "استشعار الجمال الخالص بالأمكنة وشعريتها حيث يمكن الذهاب إلى استقلالية المادة الجميلة "المكان" وانعزاله عن علاقتها بالوعي والذائقة، أمران يخرجانها ليس من خانة الشعرية فقط، بل يخرجانها من خانة الجميل "[16]، ومنه فكل الأشياء المحيطة بنا ذات جمالية لأننا من يراها كذلك، والعكس بالعكس، والإحساس بالجمال هو درجة ما في الشعرية.

وفي مقطع آخر يقول في قصيدة "حورية البحر" من ديوان شبق الياسمين[17]:

هو ذا القمر الآن يبزغ.
ما أجمل النور في الليل.
إني أحدق في الأفق المترقرق
ألمح حورية تنزل من ملكوت السماء

أحدق... حدق معي هل تراها.

في هذا المقطع يتحول بنا الشاعر إلى فضاء رحب بعيد عن مظاهر الصخب والعنف واللاإنسانية، فيرتقي بنا إلى السماء حيث القمر الذي يوحي بدلالات عدة منها: النور الساطع الذي يعطينا الأمان ونحن نسير معه، وهو عامل لتبديد الظلمات التي تسيطر على المكان فتجعله موحشا مخيفا تنتفي فيه الحياة، وهو رمز للرفعة والترفع عن سفاسف الأمور، انظر كيف يصبح الليل جميلا إذا ما خالطه نور القمر، والشاعر هنا دائما مع فضاء الرفعة ينظر في الأفق، هذا المكان الفسيح الذي لا نهاية له، فضاء يبعث على الراحة والأمن والآمان وتتنزل منه الرحمات التي يرتوي منها الإنسان من عطش الدنيا والمخلوقات البشرية المؤذية، وها هو بعد التحديق يرى حورية تنزل من السماء ويأمرنا أن نحدق لنراها، لقد أخذنا الشاعر بفضل اللغة إلى فضاءات أوسع وأرحب، إلى فضاءات الراحة والهدوء الذي فقده إنسان اليوم، وهكذا تعمل اللغة بالفضاء.

ب- الفضاء المعادي:

هنا في هذا النوع يتحول المكان إلى فضاء معادي، فتتحول شعريته من الحميمة إلى العداء، ويصبح الفضاء شبحا لا يُذَكِّرُ الشاعر إلا بالخيبات والمآسي، فيطبعه بطابع الافضية الموحشة كالكهوف والمغارات المظلمة، والمقابر التي تنتهي فيها الأجساد بالدفن، يقول في مقطع من ديوان "**أعراس الملح**" في قصيدة بعنوان" رحلة الموت والميلاد"[18] :

أتزوج النار الشهيه ساقطا في بشر هذا الليل، أهوى نيزكا
في القاع ، يخنقني مناخ الموت، تنهشني الذئاب العمي،
تغمرني ركامات الرماد، أرتب الحب الإله، فتصرخ العنقاء ملئ
دمي، وأنهض في المقابر، ثم أمضي في كهوف الموت، أمضي،
أضرم النيران في كل اتجاه، في هشيم الريح ، في الأنهار، في
جثث الطيور، وأرتمي في لجة النيران، أعتنق الحريق.

إن المتأمل في هذا المقطع يجد شعرية الفضاء من نوع آخر، هنا يصبح المكان الذي يدور في فلكه الشاعر فضاء للغربة والوحشة، فتنعدم فيه عناصر الدفء والحميمية، بل يحل محله الحزن والكآبة، وتحيطه الظلمات والموت من كل جانب، فتنتفي فيه الحميمية التي تشعرنا بالراحة والأمان، ويصبح فضاء نشعر فيه بالخوف وعدم الاستقرار، وتمني الموت وتفضيل المقابر على فضاءات المدينة حيث الأصحاب

والخلان، وتصبح فيه الأشياء المذمومة مقبولة، فبدل أن يتزوج عروسة حلوة تنسيه الهموم، ها هو هنا يفضل الزواج بالنار الحارقة التي أصبحت شهية حلوة المذاق، محاطا بمناخ الموت القاتل، وسط الذئاب البشرية التي انتزعت منها الإنسانية والرحمة، فيتضمخ بالرماد الذي يكسوه حلة قاتمة تُنَفِّرُ كل البشر، فتنعدم مظاهر الحياة في مثل هذا الفضاء، ويصبح فضاء المقابر مفتوحا بامتياز يلجأ إليه الشاعر يوم أن تنغلق أبواب الراحة في أوجه أصحابها.

إن شعرية الفضاء تمتد عبر صفحات كثيرة من ديوان الشاعر، وها هو يعبر عن فضاءاته التي يحياها بلغة شعرية معبرة وعميقة، وتعبيرها إيحاءً صادق من ظروفه وواقعه الأليم، فهو يفضل فضاء الوحدة والانعزال حيث غياب الأحياء من عالمه، وولوجه عالم المقابر حيث الموتى الذين لا ينطقون ولا يسخرون ولا ينتقدون، يقول في قصيدته النثرية " تحولات في مرآة الانكسار"[19] :

وانكسرنا .. آه يا مقبرة الورد سلاما ! حبنا ينزف . كان
البحر مشنوقا ، وكانت زهرة الشمس على أنقاضنا تبكي..
وأسراب السنونو والمناديل وأكواخ اليتامى .. كلها همت ولجت
في تراتيل الوداع .

إن انحياز الخيال إلى النوع الأول يدفع بالإنسان إلى البحث المعمق فيه، وهكذا كانت اجتهادات الكثيرين حول تقريب هذا المصطلح، ولعل الناقد الفرنسي غاستون باشلار قد وفق إلى حد ما في تقريب هذا المفهوم، فنجده تناول جماليات الأمكنة التي حَوَت ذكريات الطفولة الأولى، ومراحل الشباب، ولعل المكان الأول هو البيت، لتأتي بعده الأماكن المسكونة التي تحمل قيم الحميمية، فكل ما يساعد الإنسان على التغلب على قسوة الحياة، وهمجية البشر، وكل ما يحتمي به من جدران وسقوف ينشط في ذاكرته وخياله القيمة الخفية للفضاء الأليف، لأن ما يوفر الأمن والاستقرار يستحق تسميته بالألفة، أي معنى من معاني الاستقرار، وهذا راجع لأشياء خفية نحسها ولا نلامسها، فتثير في ذاكرتنا أي النوعين كان، وبالتالي هناك أمكنة ترتبط بالخيال فلا تنساها الذاكرة مهما تباعدت وضربت في القدم، لا لشيء إلا إنها وفرت جوا من الفرح والسرور والألفة، فلا ينساها الإنسان مهما كبر، وعلى العكس

هناك أماكن سرعان ما تخرج من الذاكرة لأنها تربطنا بالألم والفجيعة، "إن كل أماكن عزلتنا الماضية، الأماكن التي عانينا فيها من الوحدة، والتي تمتعنا ورغبنا فيها بالوحدة والتي تآلفنا فيها مع الوحدة تبقى راسخة في داخلنا غير قابلة للإمحاء"[20]، ومن ثم فالمكان "ليس مساحة للحياة .فمثلما يمتلك دلالته على الصعيد النفسي للشخصية التي تمتلكه أو تفتقده، فهو يدل أيضا إيديولوجيا وأخلاقيا واجتماعيا"[21]، فالطبيعة البشرية هي من تطبع المكان بطوابع مختلفة، بل هي من تضفي عليه قيم الجمال والانجذاب، أو قيم القبح والنفور، ولا يكون ذلك إلا بقدر تلاؤم العلاقات التي تربط المكان بساكنيه، وها هي الانكسارت تتربع على فضاء الشاعر الفحل، وتحول الأمكنة عنده إلى مقبرة لكن من ورد؛ يزرع الأمل في نفسيته المنحطة، فينزف الحب الذي كان لابد ألا ينزف؛ بل يكبر وينمو، إن الشاعر هنا يجيد التلاعب باللغة لتصبح للمكان شعريته الخاصة به، عند عثمان لوصيف يصبح فضاء البحر الفسيح إنسانا أحاطت به الكروب من كل جانب فقرر وضع حد لحياته وأصبح مشنوقا، فبكت زهرة الشمس على بقايا الأنقاض، لقد أصبح الفضاء عنده نوعا من الوحشة والعداء، فأصبح لا يرى إلا أكواخ اليتامى الذين فقدوا كل الأهل، ولم يبق للشاعر إلا تراتيل الوداع، وداع بلا رجعة من عالم الزيف والاحتقار.

إن علاقة الإنسان بالمكان علاقة متجذرة منذ القدم، فالإنسان هو المتحكم في هذه العلاقة، وهو الذي يحول الفضاء بحسب حاجاته وهو "المتصرف في الفضاء، وهو المنتج الفعلي لدلالات هذا الفضاء، ... فهي بالتالي مفصحة عنه عاكسة لصورته وجملة مركبات حياته، ثم غناه هو المقياس لكل شيء وهو الغاية من كل شيء، وهو الصانع لمصيره وهو المسؤول عنه"[22]، ومن ثم ارتسمت معالم المكان في الفكر البشري، وتحددت دعائمه، خاصة وهو "من أدق ما عرفه الفكر البشري من المفاهيم وأكثرها تعقدا وتشعبا، وأدعاها إلى الاحتياط والاحتراز والتثبت"[23]،

إن الفضاء مثلما يتفاعل مع الزمن، فإن الفرد كذلك بقدر ما يعمل على تنظيم الفضاء فإن الفضاء يعمل على تنظيم الفرد، وبالتالي فهو اختراق متبادل بين الطرفين، إنه تفاعل يدخله الفرد عبر مراحل تجربته في الحياة الموجود داخلها، وعبر تشَكُّل تصوراته وخبراته وتشييد معرفته، ولذلك يمكن القول بأن لتاريخ الإنسان علاقة

مجلّة تنوير للدراسات الأدبية والإنسانية ISSN 2571-9821
المجلّد: 04 العدد:01 السّنة: 2020 ص: 20 - 37

وطيدة بتاريخ اختراقه للفضاء، لذلك فإن الفضاء يلعب دورا كبيرا على مستوى الفهم والتفسير والقراءة في الإبداعات الإنسانية.

إنه بالاتكاء على الطرح المسبق، يغدو هذا المكون الأساسي " الفضاء" عاملا من العوامل الأساسية للوصول إلى المعرفة وسبر أغوارها، لأنه أي -الفضاء – في الدراسات الحديثة شيء متعلق بالذهن، فهو بذلك الشكل القبلي الذي " ترتسم فيه كل مسافة متخيلة، كما يذهب إلى ذلك جلبير ديران"[24]، لذلك لا يمكن اعتباره أداة للمعرفة فقط، بل نجدها تابعة له في الكثير من الأحيان، حيث تأخذ فيه الذات وضعا يسمح لها بالتكلم عن جميع الموضوعات التي تريد التحدث عنها، ومن هنا لم يكن الفضاء يعني على مر العصور إلا تصورا هندسيا، تصور وسط فارغ ، ليأتي دور الإنسان في ملأ هذا الفراغ على النحو الذي يريد، وبكل المعاني الموصلة إلى ذلك، إلا أن السؤال يبقى مطروحا منذ أن طرحت قضية الفضاء : هل يبقى الشك في هذا الفضاء المطلق ؟ .

3- شعرية اللفظة :

تستعمل اللفظة عادة في الشعر والنثر على حد سواء، إذ تستعمل الكلمات نفسها و"لكن طرائق ترتيب الكلمات وتشكيلاتها النسقية، هي التي تؤدي إلى نشوء الأنواع والأجناس الثقافية، وافتراقها عن بعضها، وعلى هذا الأساس لا يمكن أن ننسب إلى كلمة معينة صفة الشاعرية ونحجبها عن الأخرى، وإنما وجودها داخل السياق أو النسق هو الذي يمنحها صفة الشعرية أو يحجبها عنها "[25] .

إن توجه الشعر الحر بصفة عامة؛ وشعر عثمان لوصيف بصفة خاصة إلى انتقاء بعض الألفاظ المتقصدة لوضعها في شعره، وتحاشي ألفاظ أخرى يكرس دخول كثير من الألفاظ في إطار الشعرية، هذا ما جعل الشعر المعاصر يتصف بالشعرية لاحتوائه على ألفاظ تتخطى اللغة العادية إلى لغة أرقى، وبمقاييس البلاغة الشعرية، كما أن النقد القديم قد "فرّق بين لغتين، لغة يقصد بها الفهم والإفهام، وهي اللغة التي تجري بها الأحداث العادية، ولغة أخرى تتجاوز الإفهام إلى ما وراءه من الحسن والقبول والإثارة، وهي البلاغية أو الأدبية"[26]، وسنحاول في شعر عثمان لوصيف تقصي قضية اللفظة الشعرية، أو شعرية اللفظة، وإحصاء بعض الكلمات التي استعملها الشاعر في

ديوانه، ومن ثمة تبويبها وملاحقة تواترها، والوصول أخيرا إلى أي مدى تكون قد وصلت إليه شعرية اللفظة.

نحاول أن نقف على مقطع من قصيدة " **قالت الوردة**"[27] :

كم رسمت الخرائط .

كم بِتُّ أطعن ليل العدم

كم كتمت الشموس

وأعطيت شكل الكواكب

شكل البحار وشكل السديم

كم عكرت صحارى القرون العجاف

هتكت حجاب الظلم

وتسلقت فجر القمم

كم وقعت على هامتي ميتا

- **ليل العدم**: لفظة لها شعريتها الخاصة، لقد وفق عثمان لوصيف إلى حد بعيد لاختيار ألفاظ ذات دلالات متعددة في قصيدته وديوانه، فلفظة الليل تدل على السكينة والوقار، إليه يلجأ المتعبون، وله ينقاد الضاربون في الأرض ليستريحوا من عناء السفر، فهو فضاء الراحة والهدوء والسكينة، لكنه يتحول عند شاعرنا إلى فضاء العدم وانتهاء الحياة.
- **كتمت الشموس:** يراوغنا الشاعر عن طريق اللغة مراوغة كبيرة، لقد أعطى للشمس صفة الحياة بصيغة الجمع، وجعلها سرا يُكتم، وها هو يخبؤها في صدره لعله يبوح بها في زمن غير هذا الزمن الموحش.
- **حجاب الظلم:** يحاول صاحبنا إعطاء صبغة جمالية على لفظة الظلم، وبما أن الظلمة في حد ذاتها ستار يلقى على النهار فيحجبه، فقد ألقى عثمان لوصيف حجابا على الظلمة لتزداد ظلاما، أو تختفي من أثر الوجود نهائيا ليرتاح منها.
- **فجر القمم:** الشاعر طموح جدا رغم المعاناة، فهو ينتقي لمعجمه ألفاظا دالة على العلو والرفعة، ويضيف عليها شيئا من الشعرية التي تخرج به عن اللغة العادية،

ويصبح للفجر قِمَمًا مثل الجبال، وما علينا إلا الاستيقاظ فجرا لتسلق القمم العاليات.

ب-شعرية التركيب :

إن الشعرية عند أغلب الناقدين "خصيصة علائقية، أي إنها تُجَسِدُ في النص شبكة من العلاقات التي تنمو بين مكونات أولية سمتها الأساسية أن كلا منها يمكن أن يقع في سياق آخر دون أن يكون شعريا"[28]، هذه العلائقية تكون بين طرفين كي تكتمل العلاقة، ويكون ذلك عن طريق إسناد كلمة إلى أخرى "لتكوين مناخ شعري دون أن تستطيع الكلمتان تشكيل جملة نحوية بالضرورة ..."[29]، وهذا ما نلمحه جليا في الكثير من عناوين القصائد والدواوين التي تتألف في الغالب من كلمتين فأكثر، ولكن بلاغتها وطاقتها الشعرية أكثر من أن توصف، وسنحاول تتبع عناوين الدواوين المركبة لعلنا نصل إلى ملامح الشعرية عند عثمان لوصيف:

الكتابة بالنار، شبق الياسمين، أعراس الملح، نمش وهديل، قالت الوردة، جرس لسماوات تحت الماء، ولعينيك هذا الفيض.

القصائد: عودة العاشق، حورية القمر، جسدي الممزق، آيات صوفية، شاعر ملعون، تظمأ الأقحوانة.

إن المتأمل في عنوان هذه الدواوين والقصائد التي بين أيدينا، يجد أن الشاعر اختار له عناوين خرج فيه عن مألوف اللغة العادية، فالعنوان هنا يشكل مفردا لغويا يطرح قيمة بلاغية، ويدخل في صلب الشعرية، إنه يعد بمثابة المنطلق الذي يواصل امتداداته وإشعاعاته إلى ما يليه في النص الشعري، ومن ثم فمن المؤكد وجود مفارقات حادة وشاملة يقيمها الشاعر – بقصد أو بغير قصد – بين القصيدة وعنوانها، وهذه عناوين الدواوين:

- **الكتابة بالنار**: يعتبر هذا العنوان مفارقة شعرية بامتياز، فقد أضفى للنار قيمة جمالية وأبعدها عن معناها الحقيقي، فبعد الإحراق وترك الأشياء رمادا تذروه

الرياح، هاهي النار عند شاعرنا وسيلة من وسائل الكتابة، وما ذلك إلا للكتابة بحرقة كبيرة عند الشاعر.

- **شبق الياسمين:** يحيل هذا العنوان على شعرية من نوع آخر، فالياسمين هو الورد الذي ننتشي رائحته ونعشقه لما نشمه، لكنه يتحول بفضل لغة عثمان لوصيف الشعرية إلى إنسان يشتهي بشغف فيتحول إلى شبق جارف وشهوة عارمة.
- **أعراس الملح**: إنه إذا نقص الملح في الطعام فإنه يصبح بلا طعم، وكل من ذاقه ابتعد عنه، هكذا تكون شعرية التركيب، فبإضافة الملح إلى الأعراس تصبح ذات قيمة ومعنى، ولكن المفارقة هي كيف نضيف الملح إلى شيئا معنويا، إنها الشعرية عند كاتبنا.
- **جرس لسماوات تحت الماء**: إذ يوحي هذا العنوان بأن السيرورة العامة داخل النص ستتخذ منحًا تصاعديا، تحتل فيه المفارقة حيزا واسعا، فقد جمع بين العلو والأسفل، والصوت والسكون، بين السماء والأرض ولكن تحت الماء، وصوت الجرس ولكن تحت الماء، فلا أحد إذن يسمع ولا يجيب.
- **قالت الوردة**: إنه حين تتكلم الأشياء فقد اكتمل معنى الشعرية، لقد أضفى صاحبنا صفة الإنسانية على الورد، لذلك فهي تتكلم لتقول كل الأشياء الجميلة.
- **ولعينيك هذا الفيض**: لقد شبه عين المحبوبة بالنهر أو الوادي الجاري، وكأن بكاءها سيل جارف يسوق معه كل من تسبب في إزعاجها وبكائها.
- إنه لمن التقصير بما كان إدراج العنوان فقط ضمن شعرية التركيب، أو شعرية العبارة والاقتصار عليه، فقد بات من الواجب تتبع العبارات الأكثر إشعاعا بالطاقة الشعرية، وتتبع تموضعاتها داخل شعر عثمان لوصيف لأنها تتغلغل في نسيج سيرورته المختلفة المتشابكة .

أما عناوين القصائد فقد جاءت هي الأخرى تشع شعرية، وتفيض جمالا، وقد انتقاها الشاعر بعناية تامة، منها:

- **عودة العاشق:** لماذا يرحل العاشق حتى يعود، وكأن الحب كان من طرف واحد.

- **حورية القمر:** لقد انتقلت الحورية من الجنة إلى القمر عند الشاعر، وها هو يسكنها هذا الفضاء العالي ليزيدها رفعة وعلوا.
- **جسدي الممزق:** بقد انتقى الشاعر تركيبا جيدا للتعبير عن حزنه الذي لازمه من زمن، فهو يصفه بأنه ممزق له جراحات عميقة جدا تحد من حركته.
- **آيات صوفية:** تحول عند الشاعر التصوف إلى آيات تتلى، وقد جمع في هذه المفارقة بين آيات الرحمن والحب الإلهي.
- **شاعر ملعون:** يحاول عثمان لوصيف إضافة صفة اللعنة وهي الطرد والإخراج إلى شاعر غير مقصود، لذا جاء به نكرة حتى لا ينطبق على أحد من الشعراء.
- **تظمأ الأقحوانة:** الظمأ من صفات البشر، وقد حاول صاحبنا إضافته إلى الأقحوانة التي بقيت وحيدة دون أن يشمها أحد، فظمئت ويبست.

إن هذه الأمثلة المأخوذة من المقاطع الشعرية في ثنايا القصائد والدواوين؛ تدفعنا بقدر كبير إلى الالتفاف حول النص وتأويل الدلالة، فكل هذه المقاطع وغيرها تمثل أنموذجا للشعر الصافي لدى عثمان لوصيف، والتي تستمد جمالها من جماليات الشعر واللغة الشعرية وقيم البلاغة.

ت-شعرية المعنى :

إن الجدل ما يزال قائما منذ الأزل حول نظرية المعنى، حيث يمتد إلى تراثنا النقدي القديم الذي انقسم نقاده إلى قسمين، قسم ينتصر للفكرة وآخر ينتصر للمعنى، وقبل أن نعرج على شعرية المعنى في شعر عثمان لوصيف، لا بد من الإشارة إلى أن شعرية المعنى كانت قديما تتعلق بالشعر الموزون المقفى، وها هي تتجلى في الشعر الحر والقصائد النثرية، وبهذا أصبحت تجليات الشعرية بادية للعيان في الأشكال الشعرية الحرة ، لنتأمل هذا المثال: يقول في قصيدة "المخاض"[30] :

الليل يعاني من حمى الغثيان.
وضلوع الفجر تمزقها النيران.
والنطفة في بئر النسيان.
تتهيأ والألوان.

تتشكل في وله وحنان.

يمتلأ هذا المقطع معانٍ مندسة خلف المكبوتات التي يعيشها البطل " عثمان لوصيف"، فمن خلال تتبع الأبيات يتجلى لنا المعنى الخفي للكلمات التي وظفها، فالليل إنسان عند الشاعر، وقد غادره النوم فلم يعد يبالي به؛ لأنه قد إصابته الحمى التي جعلته في حالة غثيان دائم لا يستطيع الحركة ولا السكون، وفي هذا يتشكل المعنى الخفي للعبارة، فالشاعر يقوم بعملية إسقاط عكسية على حالته، لأنه يعاني حتى طال عليه الليل المريض، وقد أصبح للفجر ضلوعا تتمزق بفعل النيران، ومعناه أن جوانحه تحترق داخليا من دون أن يحس بها أحد، لأنها في وقت الفجر والناس نيام في بلهنية وسبات، حتى من اقرب الناس إليه وهم الأولاد الذين لم يحركوا أي ساكن تجاه معاناته، فشبههم بالنطفة التي ألقيت في بئر النسيان.

خاتمة:

وصفوة القول واستخلاصا لما تقدم؛ يمكننا أن نستخلص بعض النتائج المتعلقة بهذه الدراسة، وقد كانت كالآتي:

- يعتبر الفضاء مجالا رحبا تتحرك فيه الشخصيات بحرية داخل المتن الشعري.
- تعتبر الشعرية الأداة الكاشفة والميزة لِلُّغَةِ العادية واللغة الشعرية التي تؤدي أكثر من معنى.
- دواوين الشاعر عثمان لوصيف تنطق شعرية؛ وذلك من خلال التراكيب اللغوية التي استعان بها في بناء نصه الشعري.
- يتراوح الفضاء بين الأليف الذي يأنس له الشاعر ويرتاح، فتراوده الذكريات للعودة إليه، وبين الفضاء المعادي الذي طبع جل القصائد تقريبا، وقد عَبّرَ بصدق عن معاناة الشاعر الحقيقية.
- جل العناوين المركبة ذات صبغة شعرية بامتياز، فقد أعطاها الشاعر صفة الإنسانية وطبعها بالجمال.
- لقد كانت شعرية اللفظة خادمة لمعجم القصيدة، لذلك انتقى عثمان لوصيف أحسن الألفاظ وأرقها؛ وأكثرها تعبيرا عن المعاناة اليومية.

المصادر والمراجع :

[1]- مشري بن خليفة، الشعرية العربية، مرجعياتها وابدالاتها النصية، دار مكتبة الحامد للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2010، ص 23.

[2]- المرجع نفسه ، ص 32.

[3]- المرجع نفسه، ص 32.

[4]- أدونيس ، الشعرية العربية ، دار الآداب ، بيروت ، 1985، ص 46.

[5]- هيام شعبان، السرد الروائي في أعمال إبراهيم نصر الله، دار الكندي للنشر والتوزيع، أربد، الأردن، ط1، 2004.ص 26.

[6]- عمر عيلان ، في مناهج تحليل الخطاب السردي ، مكتبة الأسد ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2008، ص 97 .

[7]- حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء و سراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، تونس ، ص 28.

[8]- تزيفطان تودوروف، الشعرية، تر شكري المخبوت، رجاء سلامة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1990، ص 23.

[9]- فتيحة كحلوش، بلاغة المكان، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1،2008، ص 65.

[10]- المرجع نفسه ، ص 17.

[11]- صلاح صالح ، سرديات الرواية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ط1، 2003. ص250.

[12]- حميد لحميداني ، بنية النص السردي ، ط1، بيروت ، المركز الثقافي ، 1991 ، ص71.

[13]- المرجع نفسه، ص 07.

[14]- المرجع نفسه، ص 07.

[15]- عثمان لوصيف، اللؤلؤة ، دار هومة، للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر 1997، ص 11.

[16]- صلاح صالح ، سرديات الرواية ، ص250.

[17]- عثمان لوصيف، شبق الياسمين، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،(د ط)، 1986 ، ص77 .

[18]- عثمان لوصيف، أعراس الملح، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص 74.

[19]- المصدر نفسه، ص 32.

[20]-Gaston Bachelard: La poétique de l'espace, Paris, Ed .PUF (Quadrige), 12ème ed,1984. p28.

[21]- فتيحة كحلوش ، بلاغة المكان ، ص 22.

[22]-عبد الصمد زايد ، المكان في الرواية العربية ، دار حد علي للنشر ، الجمهورية التونسية ، ط1 ، 2003، ص 10.

[23]- المرجع السابق: ص 15.

[24] - Voir. Alain CRESCIVICCI, Les territoires Céliniens, Paris, Ed. Klincksiek, 1990, p. 10.

[25]- صلاح صالح ، سرديات الرواية ، ص228.

[26]- عبد الحكيم راضي ، نظرية اللغة في النقد العربي ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ط1، 1980، ص 30.

[27]- عثمان لوصيف ، قالت الوردة ، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر ، (د ط)، 2000، ص16

[28]- كمال أبو ديب، في الشعرية ،، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت (د ط) 1987. ص15.

[29]- صلاح صالح ، سرديات الرواية ، ص230.

[30]- عثمان لوصيف، أعراس الملح، ص 79.